

الأخلاقية الكانطية وخصوصيتها الفلسفية

أ. بن حجة عبد الحليم*

تتمحور إشكالية هذا المقال حول الموقف الكانطي من النظريات الأخلاقية التقليدية المادية منها والمثالية، في إطار مشروعه النقدي والثورة الكوبرنيكية التي أعلنها ضد الأخلاقية القطعية المغلقة التجريبية منها، وبالأخص تلك المنظومات التي روج له غالبية الفلاسفة الفرنسيين والانجليز في القرن الثامن عشر، والتأسيسات فوق الطبيعية التي لجأت إلى مفهوم الكائن المطلق.

أخذ "كانط" على عاتقه تأسيس نظرية أخلاقية عقلانية مختلفة تمام الاختلاف عن النظريات الأخلاقية التقليدية الطبيعية منها وفوق الطبيعية، وقد كانت الفلسفة الأخلاقية منذ القدم تعرض أحد موقفين، أحدهما يسير في ركب الأخلاقية الأبيقورية التي «انتهجت طريق العلم الطبيعي وسعت إلى تفسير الأخلاق واستنباطها من الوجود والوقائع منطلقة في ذلك من تحليل الإنسان والتحديدات

* باحث بقسم الفلسفة، جامعة وهران 2.

الأمبريقية له»¹، وثانيهما يتبع نصوص العقائد الدينية ويربط القيم الأخلاقية بمفهوم الإرادة الإلهية، فقد ضاق من مواقف هذه المذاهب الأخلاقية كلها، وساء ما انتهت إليه فلسفتهم الطبيعية التي جردت القيمة الأخلاقية من كل أساس مرجعي متعال، واقتصرت على مدلول واحد هو التجربة بمعناه المادي الحسي أو المنفعة والمصلحة بمعناه الذاتي الأناني، فالإنسان ينبغي أن «تسير سلوكه مبادئ عليا تصدر عن أسمى جانب في طبيعته، ولا تخضع حياته الخلقية لنزوة طارئة أو هوى مفاجئ أو لذة مغرية أو أنانية ملحة»².

ومن المؤكد أن الانقلاب الكوبرنيكي الذي ادعاه "كانط" لنفسه في الفلسفة عموما يتجسد على مستوى النظرية الأخلاقية، فقد سعى في إطار مشروعه النقدي إلى الثورة على كل الفلسفات الأخلاقية التقليدية، مقتنعا بشيء وهو «أنه وإن كان لا بد للعلم من أسس راسخة في المجال الطبيعي المادي، فلا بد للأخلاق من أسس مماثلة في المجال الإنساني وانه إذا كان على العقل أن يشرع للتجربة المادية ويضع أصولها ويشكل مجالها ويحدد غايتها، فإن على العقل أيضا مهمة لا تقل خطرا وهي أن يضع للتجربة الأخلاقية مثل هذه الأصول وأن يحدد لها أيضا الهدفا الواضح»³.

¹ على عبد الله الصغير، مفهوم الأخلاق وخصوصيتها في النظرية الأخلاقية الكانطية، مجلة الطريق، العدد الأول دار الينايع، دمشق، 1990، ص 110.

² توفيق الطويل، مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق، الطبعة الأولى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1953، ص 72.

³ إيمانويل كانط، أسس ميتافيزيقا الأخلاق، ترجمة: د محمد فتحي الشنيطي، الطبعة الثانية، دار النهضة العربية بيروت، 1969، ص 12. 13.

فقد قصد "كانط" في كتابه "نقد العقل العملي" إلى تأسيس القيم الأخلاقية و«الحرية الإنسانية والأفكار الميتافيزيقية على أسس ثابتة راسخة»¹.

من هنا، نلاحظ أنه إذا كان "كانط" مجددا في فلسفته النظرية العلمية فقد كان كذلك في فلسفته الأخلاقية العملية، ولم يكن مشروعه نقديا فقط، بل وتأسيسيا أيضا، حدد فيه الشروط الضرورية اللازمة لكل معرفة صحيحة، ويمكننا الآن أن نتساءل عن الأسباب والمبررات التي دفعت "كانط" إلى رفض النظريات الأخلاقية التقليدية.

يقدم "كانط" مجموعة من المبررات ليؤكد ضعف الفلسفات الأخلاقية التقليدية ويبين تحافت موقفهم وبطلان حججهم ومنها:

أولاً: يرى "كانط" بأن الفلسفات الأخلاقية الطبيعية عندما تفسر الأخلاق بالطبيعة الإنسانية مؤسسة القيمة الأخلاقية على الاعتبارات الوجدانية الحسية كالرغبة أو العاطفة أو الغايات الأمبريقية، فإنها تضر بنقاء الأخلاق وصفائها يقول: «فكل عنصر تجريبي لا يكون غير صالح لأن يكون ملحقاً بمبدأ الأخلاقية، ولكن أيضاً وفي أعلى درجة، يضر بنقاء الأخلاق»²، وقيّمها على أسس نسبية متغيرة، فالأحاسيس البشرية تختلف من شخص لأخر لا تعرف وحدة ولا ثبات، بل ونجدها تتغير داخل الشخص الواحد من حال إلى حال مفتقرة إلى الشمولية والمطلعية، فهل من المعقول إذا أن نؤسس ما هو عام وكلّي على ما هو ذاتي متغير؟ إن القيمة الأخلاقية «ليست شيئاً ما مغروساً في الإنسان من قبل الطبيعة أو معطاة له من قبل الظروف الخارجية المحيطة به، إنما هي ما ينبغي على الإنسان أن يبلغه لا

¹ إيمانويل كانط، مشروع للسلام الدائم، ترجمة: عثمان أمين، الطبعة الأولى، المكتبة للإنجلو المصرية، القاهرة 1952، ص 11.

² إيمانويل كانط، أسس ميتافيزيقا الأخلاق، المصدر نفسه، ص 119.

بفضل الطبيعة بل بالرغم عنها»¹، ومعنى هذا أن الأخلاق هي إلزام موجه للإنسان وأوامر تحدد ما يجب أن يكون أصولها عامة وكلية صادقة في كل زمان ومكان. ومن جهة أخرى فإن تأسيس القيمة الأخلاقية على الاعتبارات الوجدانية يقضى قضاء مبرما على أي موضوعية في الأخلاق، فمثلا عندما نجعل الشعور دعامة الفعل الأخلاقي ينقد "كانط" هذا المبدأ مبررا ذلك «حين يكون الشعور باللذة أو الألم أو السرور هو المبدأ المحدد للأخلاقية، الفعل يغدو كل شيء خاضعا لهوى الذات، ومن ثم خاضعا للتنوع لا حصر له ولا أساس»² ليس هذا فقط، بل ويعتقد "كانط" أن الذات نفسها لا تكون «قادرة على تحديد موضوع ثابت يجلب لها السرور، بل يصبح الموضوع ذاته عرضة للتغير بتغير حالة الذات، فالإنسان قد يغادر حديثا عقلانيا كان يعتبره نفيسا في أوقات أخرى ليجلس إلى طاولة لعب، وقد يعرض عن فقير كان يجد السرور في الإحسان إليه لأنه لم يعد يملك نقودا في جيبه غير ما يحتاج إليه ليدفع ثمن تذكرة لدخول مسرحية هزلية»³، فهل من المعقول إذا أن نؤسس القيمة الأخلاقية على مبدأ متغير بتغير الحالة المزاجية للذات؟

ثانياً: القيمة الأخلاقية لا يمكن أن تستمد من العاطفة أو الرغبات أو الغايات الذاتية كما اعتقد أنصار نظرية الحس الأخلاقي ("شافتسبري" و"هاتشيسون")، لأن هذه «الانفعالات والنفعات الروحية كما أنها تدفع الإنسان إلى طريق الخير فقد تدفعه إلى ارتكاب الشر»⁴. فالشجاعة كقيمة أخلاقية لا تكون خيرا مطلقا في

¹ على عبد الله الصغير، المرجع نفسه، ص 110

² جمال محمد أحمد سلمان، انطولوجيا الوجود إيمانويل كانط، بدون ط، دار التنوير للطباعة و النشر بيروت، 2009، ص 411.

³ المرجع نفسه، ص 411.

⁴ المرجع نفسه، ص 111.

ذاتها لأنها لو توافرت لدى المجرم لجعلته مجرما خطيرا ينفر منه الناس ويستقبلون فعله.

وعموما فقد اعترض "كانط" على مذهب الحاسة الخلقية القائل بوجود قوة أو حاسة أو غريزة في الإنسان يميز بها الخير من الشر وذلك: «لأن الناس يختلفون في الحكم على الأشياء، اختلافًا كبيرًا حتى في البديهيات في "سبارطة" كانت تعد السرقة عملاً ممدوحاً وبعد القتل في "داهومي" واجبا من الواجبات، فكيف يقال بعد إن الناس منحوا غريزة لأدراك الخير و الشر؟ مع أننا نراهم لا يختلفون هذا الاختلاف فيما يدرك بالحواس، فلا يقول قوم على الأسود أبيض ولا يقول آخرون عن الاثنين أكبر من الأربعة»¹، كما أنه بوسع من يرفض مذهب الحاسة الخلقية أن يرد عليهم «إني لا أجد في نفسي هذا الوجدان الذي تحدثون عنه و بالتالي لا أشعر بالزام يوجب علي أن أتوخى العدالة أو ألتزم لأمانة أو أتمسك بالفضيلة»²، إذا فربط القيمة الأخلاقية بطبيعة الحس الأخلاقي الكامن في نفس الإنسان، لا يحقق المطمح الكلي للخلق و التي ينبغي أن تقوم على مبدأ عام يمكن تطبيقه على جميع الناس ولا يكون مقصوراً على فئة معينة وهبوا الذوق الفطري أو ملكة التعرف حدسيا على الخير أو الشر «هذا بالإضافة إلى انتفاء قيام الإلزام الخلقي الذي يوجب على الإنسان إتيان أفعال أو تجنب أفعال أخرى، والأخلاق أصلاً مجموعة من القواعد تنعدم قيمتها ما لم تقتزن بالزام يوجب إتباعها»³، هذا من جهة.

¹ أحمد أمين، الأخلاق، الطبعة الثالثة، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1931، ص 54. 55.

² توفيق الطويل، الفلسفة الخلقية نشأتها وتطورها، الطبعة الأولى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1960، ص 222.

³ فائزة أنور شكري، القيم الأخلاقية بين الفلسفة والعلم، بدون طبعة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2005، ص 142.

ومن جهة أخرى فإن القول بأن الإنسان يمتلك نوعا من الحس الخلقي يوفر إمكانية الشعور للوقوف على الخير والشر فينا و في الآخرين، يرى كانط «أن فهما كهذا للأخلاق وأساسها فاسد حتما، وذلك لأن وجود هذا النوع من الأحاسيس بات يفترض، مسبقا إنسانا مربي أخلاقيا بعبارة أخرى لكي نفرز ونميز هكذا أحاسيس في الإنسان لا بد أن يكون لدينا مفهوم الأخلاق... إلا أنه لا يجوز استنباط الأخلاق ذاتها منها، فالحس الأخلاقي ما هو إلا فعل ذاتي يمليه القانون على الإرادة»¹.

كذلك فإن القول بالحاسة الخلقية «يتضمن التسليم بالجبرية، و يتعارض مع القول بجبرية الاختيار، فإذا كان الوجدان الحسي يدرك خيرية الأفعال أو شريرتها من تلقاء نفسه، من غير إثارة الإرادة و يحملنا على إتيان بعض الأفعال وتجنب بعضها الآخر، فلا مجال لتدريب إرادتنا الحرة، وتنمية القدرة على تخير أفعال وتجنب أخرى، وإذا صح هذا انتفت بذلك المسؤولية الأخلاقية»².

ثالثا: رفض "كانط" اعتبار السعادة مبدأ محمدا للفعل الأخلاقي، إذ يقول «القضية التي مفادها أن السعي إلى السعادة هو الأساس الذي ينتج عنه الخلق الفاضل، هي قضية كاذبة مطلقا لكن القضية الثانية التي مؤداها أن الخلق الفاضل ينتج عنه بالضرورة السعادة ليست قضية كاذبة كذبا مطلقا، بل فقط بقدر ما تكون صورة العلة متحققة في عالم الحس»³ وفي نص آخر يقول «إن مبدأ السعادة بوسعه أن يكون قاعدة، ولكنه لا يزودنا أبدا بمثل تلك القوانين التي تكون للإرادة

¹ على عبد الله الصغير، المرجع نفسه، ص 111.

² توفيق الطويل، الفلسفة الخلقية نشأتها وتطورها، المرجع نفسه، ص 186.

³ جمال محمد أحمد سلمان، المرجع نفسه، ص 24.

الخيرة»¹، رفض "كانط" تأسيس القيمة الأخلاقية على السعادة كما هو ظاهر من هذه الأقوال، لأن السعادة تعبر عما هو جزئي ولا تعدو أن تكون مسألة ذاتية بحتة، لا تصلح أن تكون قانونا عاما للأخلاق، قد تزودنا بقاعدة نستخدمها، ولكنها لا تزودنا بقانون عام وكلي بمقتضاه نوجه سلوكنا الأخلاقي على نحو ما ينبغي أن يكون وليس على نحو ما هو كائن.

رابعاً: لا يمكن تأسيس القيمة الأخلاقية على أي «دعامة حسية سواء أكانت هذه الدعامة هي الإحساس أم الوجدان، بسبب أن الوجدان بطبعه ذاتي بدليل أنه ليس في وسع أي فرد أن يدرك وجدان غيره من الأفراد في حين أن الأخلاق لا بد أن تكون موضوعية»²، كما أن الوجدان الحسي لا يحقق للأخلاق صفتي الكلية والضرورة، فلم يبق إلا أن نبحت عنهما في المعرفة القبلية الأولية والتي تصدر عن العقل، يقول كانط «من التناقض أن يحاول المرء استخلاص الضرورة من أحد مبادئ الخبرة، و أن يحاول بهذا إعطاء أحد الأحكام شمولية صحيحة»³، ومعنى هذا أن الفعل الأخلاقي لا ينبغي أن يتقيد بباطح خارجي أو يقع تحت سيطرة نزوة عابرة، «فالاستقلال الذاتي الأخلاقي يحمر الأخلاق من كل رضوخ للكائن ويرز السمة النوعية للقيم الأخلاقية»⁴.

خامساً: يفند "كانط" التأسيس الأخلاقي الذي يربط التجربة الأخلاقية بالمنفعة أو المصلحة، لسببين:

¹ المرجع نفسه والصفحة نفسها.

² محمد عبد الحفيظ، دراسات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة، بدون ط، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر الإسكندرية، 2005، ص 05.

³ إيمانويل كانط، نقد العقل العملي، ترجمة: أحمد الشيباني، دار البقطة العربية، بيروت، 1966، ص 31.

⁴ عادل العوا، الأخلاق، بدون طبعة، المطبعة الجديدة، دمشق، 1978، ص 332.

- الأول: لأنه لا يجعل القيمة الأخلاقية مطلقة بل مشروطة وغائية تهتم بالنتائج و الآثار في حين أن «القيمة الأخلاقية للفعل لا تكمن في النتيجة المنتظرة منه وبالتالي لا تكمن في فعل يجب أن يستعيد دافعيته من النتيجة المنتظرة»¹.

- والآخر: لأنه «لا يفضي إلى الخير إلا عرضا ويحفز على التنازل على الواجب و المساومة عليه، وحتى لو برهن السلوك على أنه مفيد وعملي فإن الدافع إليه يجب أن يكون دائما أخلاقيا وجوبيا صرفا»²، من الواضح إذا أن الفعل الأخلاقي في المنظور الكانطي يستمد قيمته الأخلاقية ونقاوته عندما يكون منزها عن أي غرض أو منفعة دنيئة أو أخروية، وإذا كان لا بد من دافع للأخلاقية فلا بد أن يكون دافعا خالصا ولا يخرج عن الأخلاقية ذاتها.

سادسًا: بخلاف الفكر الأخلاقي الطبيعي يرفض كانط أن يقيم القيمة الأخلاقية على التجربة الواقعية، لأنه من الصعب أن نعثر في الواقع العملي على فعل أخلاقي صادق يقول "كانط" «من المستحيل تماما أن نقرر بالتجربة وبيقين كامل حالة واحدة قام فيها الفعل المطابق مع ذلك على مبادئ أخلاقية فقط وعلى امتثال الواجب»³، ولأن الواقع جزئي متغير لا نعثر فيه على ما هو ثابت، بينما القيمة الأخلاقية ينبغي أن تتميز بما هو كلي ومطلق تصلح لكل كائن عاقل بوجه عام، مبادئها عامة تصور ما ينبغي أن يجب ويكون لكن من الصعب أن نعثر في التجربة الإنسانية على مبادئ عامة لتأسيس القيمة الأخلاقية. وينبه كانط أنه من الممكن أن نعثر في الواقع على سلوك أو فعل نعتقد أنه ذو قيمة أخلاقية كأن يساعد المرء

¹ محمد عبد الحفيظ، المرجع نفسه، ص 05.

² على عبد الله الصغير، المرجع نفسه، ص 113.

³ بدوى عبد الرحمان، الموسوعة الفلسفية، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للدراسة والنشر، بيروت 1984، ص 282.

جاره أو يسعف مريضاً، ولكن قد يكون هذا الفعل من أجل مصلحة أو غاية، أو يأتي عرضاً مجرد صدفة، فالتجربة الواقعية هنا قد تشهد بما يأتيه الناس من أفعال ولكنها لا تستطيع أن تثبت حقيقة ما يفعلونه أو ترقى إلى البرهنة على ما ينبغي أن يفعلوه فإذا كانت هناك مبادئ يجب أن تؤسس عليها القيمة الأخلاقية وجب أن يكون العلم بها أولياً وقبلها، فلا نستطيع مثلاً أن نتحقق من «القول بأنه يجب على الناس أن يقولوا الحقيقة بفحص عما إذا كانوا يقولون الحقيقة أو لا يقولونها بالفعل فالقول صادق بغض النظر عن سلوكهم، وهو صادق قبلها، لأن الضرورة و الكلية علامتان للقبلية»¹.

هذا يعني أن "كانط" في مشروعه النقدي كما أراد أن يؤسس المعرفة البشرية على قواعد عقلية ثابتة، كذلك أراد أن يقيم صرحه الأخلاقي على قواعد عقلية صحيحة فقد لاحظ صعوبة تأسيس القيمة الأخلاقية على الواقع المتغير «لأن الواقع مشتمل والأخلاق تريد قوانين ومبادئ موحدة والواقع متغير والأخلاق تريغ إلى ثابت، والواقع نسبي والأخلاق تهدف إلى ما هو مطلق»² كما أنه رفض أن يؤسس القيمة الأخلاقية على كل اعتبار وجداني أو حسي خلقي «لأن ميدان الأخلاق لا يمكن أن يكون ميداناً لتحليل العواطف البشرية وإلا لكانت المبادئ الأخلاقية مبادئ متنازعا عليها متجاذبة من أطراف الانفعالات، خاضعة للميول والرغبات»³.

¹ فردريك كويلستون، تاريخ الفلسفة، المجلد السادس الفلسفة الحديثة، ترجمة/ حسين الشاروني، محمود سيد أحمد، الطبعة الأولى، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2010، ص 420.

² بدوي عبد الرحمان، الموسوعة الفلسفية، المرجع نفسه، ص 282.

³ إيمانويل كانط، أسس ميتافيزيقا الأخلاق، المصدر نفسه، ص 16.

سابعاً: رفض "كانط" تأسيس القيمة الأخلاقية على الغايات والمصالح الفردية لأنه «ليست كل غاية هي غاية أخلاقية إذ يمكن للفعل العملي الناجح أن ينطوي توجهاً ضد أخلاقي»¹، وهذا يعني أن الفعل الأخلاقي ينبغي أن يستمد قيمته الأخلاقية من ذاته، فالمعرفة مثلاً جديدة بأن نطلبها ونضمنها لذاتها، ولكن قيمتها الأخلاقية لا شك تتغير إذا ما ارتبطت بغاية أخرى كالنزعة إلى التدمير أو الأنانية²، إن فكرة التأصيل المتعالي للقيمة الأخلاقية ومبادئها بعيداً عن التحديدات الإمبريقية والمصالح الذاتية التي يدعو إليها كانط «تخفي قناعة فلسفية سادت القرن الثامن عشر بكامله، وهي فساد أو مكر الطبيعة البشرية في مقابل اكتمال العقل وسواء أرجعنا هذا الفساد إلى الماهية الداخلية لهذه الطبيعة البشرية أو للمجتمع ومؤسساته وأعرافه فإن كانط فيما يبدو، لا يثق في هذه الطبيعة ثقته في العقل، ويظهر أن ميتافيزيقا الأخلاق موجهة أصلاً ضد فساد الطبيعة البشرية»³.

بهذا التفكير النقدي والصرامة المنطقية، أخذ كانط على عاتقه مهمة تحرير الأخلاق من كل عنصر مادي أو معطى تجريبي، أو وجدان حسي أو عاطفي، من أجل تقديم تصور قبلي خالص وعقلي، ومن أجل استبعاد كل ما يؤدي إلى الذاتية و التغير و التناقض، وفي الوقت نفسه هو التزام بعدم التناقض، وعدم وجود حالات استثنائية تبطل كونية الأخلاق و كليتها، إنها مهمة النقد قبل التأسيس والشرعية قبل البناء، يقول كانط «ينبغي أن نقدم الدوافع الأخلاقية في استقلالها ونقائها وتميزها عن كل الدوافع بما في ذلك تلك النابعة عن مشاعر العطف وأن السبب في الأثر

¹ على عبد الله الصغير، المرجع نفسه، ص 114.

² عادل ظاهر، نقد الفلسفة الغربية الأخلاق والعقل، الطبعة الأولى، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، 1990، ص 303.

³ عبد الحق منصف، الأخلاق والسياسة كانط في مواجهة الحداثة، بين الشرعية الأخلاقية والشرعية السياسية، بدون ط، إفريقيا الشرق، 2010، المغرب، ص 90-91.

المحدود للأخلاقية حتى يومنا هذا يرجع إلى أنه لم يتم عرضها في نقائها وتميزها، واليوم نرى أن كل رجال الأخلاق والدين قد فشلوا في هذه المهمة، ومع ذلك ستنتج الأخلاقية باستنادها إلى قيمتها الجوهرية وحدها دون أن تمتزج بالتحفيز الحسي وكل أنواع الإغراء»¹.

ولا تقتصر شمولية النقد الكانطي على هذا الحد بل تتسع دائرتها لتشمل التأسيسات الأخلاقية فوق الطبيعية، وبالأخص تلك النظريات التي تلجأ إلى مفهوم الكائن المطلق وفكرة الكمال في صورتها الميتافيزيقية، فتعتبرها الدعامة الأساسية للقيمة الأخلاقية، وذلك لأسباب عديدة:

أولاً: أن هذه الفلسفات الأخلاقية تؤسس التجربة الأخلاقية على فكرة الكمال الإلهي والتي تعتبر «كمسلمة إذا جاز التعبير غير مبرهنة بعد»²، ذلك أن العقل النظري في نظر "كانط" لا يستطيع إثبات أو إنكار حقيقة الله، وهذا لا يعني أن "كانط" ينكر حقيقة الله عملياً وإنما كحقيقة يمكن البرهنة عليها علمياً «في رسالة بعنوان دراسة في وضوح مبادئ اللاهوت والأخلاق وبدايتها توشي "كانط" أن يبين لنا أن التصورات المتصلة بالدين والأخلاق لا يمكن أن تحدد لنا مبدأً مستقر نتبعه في سلوكنا، فتصور الكمال لا يمكننا من معرفة ما ينبغي أن نسعى إليه وهذا التصور يظل عاجزاً عن تزويدنا بموضوع ملموس نقبل عليه في حياتنا العملية، بينما مبدأ، كمبدأ الهوية يمكن بمجرد النظر إليه أن نصل إلى موضوع للمعرفة خاص به»³، إذا فليس من المعقول أن نقول كما يرى كانط إن الميتافيزيقا ضرورية للأخلاق، فلا يمكن أن تكون بأي حال مصدراً للمبادئ الأخلاقية.

¹ المرجع نفسه، ص 88.

² على عبد الله الصغير، المرجع نفسه، ص 112.

³ إيمانويل كانط، أسس ميتافيزيقا الأخلاق، المصدر نفسه، ص 23.

ثانياً: يقرّ كانط في كتابه "الدين في حدود العقل الخالص" «أن الأخلاق ليست في حاجة إلى الفكرة القائلة بوجود كائن آخر يعلو على الإنسان حتى يكون في وسع الإنسان أن يتعرف إلى واجبه، كما أنها ليست في حاجة أيضاً إلى افتراض وجود باعث آخر يخرج عن حدود القانون الأخلاقي، حتى يكون في وسع الإنسان أن يؤدي واجبه، ومعنى هذا أن الأخلاق ليست في حاجة إلى الدين من أجل قيام الأخلاقية بنفسها، بل لابد من اعتبارها مكتفية بذاتها بمقتضى العقل العملي نفسه»¹.

ثالثاً: لا يمكن تأسيس النظام الأخلاقي على فكرة الكمال، لأننا لا نمتلك أي حدس عن هذه الفكرة، فنحن لا نستطيع تعيين هذا الكمال إلا بمعانينا نحن، يقول كانط «والحال أنني أزعّم أن كل محاولات استخدام العقل استخداماً تأملياً محضاً في مجال الإلهيات، إنما هي محاولات عقيمة تماماً، و باطلة بموجب قوامها الداخلي و لا طائل من ورائها»² والمعنى من هذا الكلام أنه من الصعب تبرير القيمة الأخلاقية بردها إلى فكرة الكمال التي لا يمكن تأكيد صحتها بمنطق العقل النظري، لأنها لا تعرف بصورتها النظرية والتي لم يبق لنا أن نعرفها إلا بصورتها العملية.

رابعاً: إن التأسيس الأخلاقي الذي يربط القيمة الأخلاقية بمفهوم الكمال أو الإرادة الإلهية يعمل على «تشويه نقاوة الباعث الأخلاقي»³، فالدافع إلى الفعل الخلقي يصبح خارج دائرة الأخلاق، في حين «أن القيمة الأخلاقية لا تتركز في الموضوع، بل في الفاعل الأخلاقي ذاته أي في الإنسان»⁴. إن أي «كتاب من

¹ إبراهيم زكريا، كانط أو الفلسفة النقدية، دون طبعة، دار مصير للطباعة، الكويت، د ت، ص 216.

² محمد عثمان الخشت، الدين والميتافيزيقا في فلسفة هيوم، د ط، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة، ص 80.

³ على عبد الله الصغير، المرجع نفسه، ص 112.

⁴ عادل العوا، الأخلاق، المرجع نفسه، ص 203.

الكتب المقدسة وكل ما ينزل به الوحي يجب أن يحكم عليه بما له من قيمة أخلاقية ولا ينبغي أن يكون هو نفسه الحكم الذي نرجع إليه في صياغة قانون الأخلاق، أو بعبارة أخرى يجب أن تأتي الكتب المقدسة متمشية مع ما يمليه الشعور الأخلاقي المفطور في الإنسان، وليس هذا الشعور هو الذي يتغير تبعاً لما ينزل به الكتاب المقدس¹، من الواضح أن كانط يرفض الفلسفات الأخلاقية التي تجعل الأخلاق مجرد طقوس وشعائر نسترضي بها الله مدعين أن قيمة الفعل الأخلاقي تكمن فيما يأتي موافقاً للتعاليم الدينية، يقول كانط: «إن قيمة الكنائس والمعتقدات هي بمقدار ما تعاون الجنس البشري على الرقي الخلقى»².

خامساً: لأن هذه الفلسفات تجعل أساس الأخلاق في الله غاية و وسيلة «فالنموذج الأعلى هو الكمال الإلهي تطبيقاً لكلمة السيد المسيح "كونوا كاملين كمال ربكم الذي في السموات"»³، لكن بخلاف هذا المنطق يرى "كانط" أن أساس الأخلاق يوجد أولاً في العقل أما فكرة الكمال الإلهي فهي مسلمة ضرورية لا شك في ذلك ولكن ليس كأساس للمبادئ الأخلاقية، وإنما كمسلمة لكمالية الخير الأسمى.

والمقصود من هذا الكلام أن افتراض وجود الله هو افتراض أخلاقي ضروري ليس كشرط للواجب الأخلاقي، لأن الواجب يركز على العقل العملي ذاته لا على شيء آخر ولكنه كشرط من أجل تحقيق الخير الأسمى⁴، وعلى أية حال فإن المسألة التي أراد "كانط" أن يؤكد أنها لا ينبغي أن نلتمس قاعدة الإلزام

¹ ركني نجيب محمود، قصة الفلسفة الحديثة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، بدون ط، 1936 ص304.

² المرجع نفسه والصفحة نفسها.

³ فائزة أنور شكري، المرجع نفسه، ص 156

⁴ فريال حسن خليفة، الدين والسلام عند كانط، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2001 ص79.

الأخلاقي في طبيعة الإنسان، ولا في ظروف العالم الذي وضع فيه ولا حتى في فكرة الكمال الإلهي، بل لا بد أن نبحث عنها بطريقة قبلية في تصورات العقل الخالص وحدها¹⁽³⁾.

سادساً: ينتقد "كانط" الموقف الأخلاقي الذي يحاول تأسيس الأفعال الإنسانية على الإرادة العامة، لأن هذا المنحى «لا يعدو كونه محاولة لتأسيس الأخلاق على قواعد وليس على قوانين ومبادئ أولية»²، معنى هذا أن آفة هذه المذاهب الأخلاقية هي أنها لا تملك أن تقدم غير قواعد متفاوتة، بدلا من أن تقدم قوانين كلية و مطلقة تصلح لأن تكون مبادئ أولية تؤسس عليها القيمة الأخلاقية، يقول "كانط" «إن هذا النوع من الفلسفات لا تصل أبدا في دقتها إلى الضرورة و الكلية والعمومية، إنها تظل مجرد قواعد أخلاقية فحسب لا ترقى إلى مستوى القانون»³.

سابعاً: يدحض "كانط" «التأسيسات فوق الطبيعية للأخلاق و بالأخص تلك النظريات التي تلجأ إلى المفهوم الأنطولوجي للكمال وإلى مفهوم الكائن المطلق لأن هذه التأسيسات ترتبط بالفكر اللاهوتي، وتستنبط وجود الله من مفهوم كماله، وفي الوقت عينه تقوم باستنباط معنى الأخلاق من هذا المفهوم (الكمال)»⁴، والحق أن هذه النظريات في اعتقاد "كانط" تدور في حلقة منطقية، فهي تصور الكمال الإلهي كقيمة اسمي ومن هذا التصور تحدد أساس القيمة الأخلاقية، وفي هذا مصادرة على المطلوب، فقد لاحظ "كانط" «بجدسه الأصيل أن مثل هذه النظريات تنطوي على ميل حتمي للدوران في حلقة مفرغة، ويتعذر عليها تجنب

¹ فردريك كوبلستون، المرجع نفسه، ص 425.

² جمال محمد أحمد سلمان، المرجع نفسه، ص 411.

³ المرجع نفسه، ص 412.

⁴ على عبد الله الصغير، المرجع نفسه، ص 111.

ذلك مادامت تفترض ضمينا الأخلاق التي ما يزال يتوجب على هذه النظريات أن تقدم تفسيراً لها»¹.

بهذا ينقد "كانط" اللون اللاهوتي الذي يتعامل مع الإنسان من مواقع العالم الأخرى، ويربط القيمة الأخلاقية بالإيمان وفكرة الثواب والعقاب فيعمد موضوعاً إلى تشويه نقاوة الباعث الأخلاقي، بينما «الفعل الأخلاقي الحق الذي ينطلق في حركته من إرادة طيبة ونية صادقة بعيداً عن الإغراءات والغايات النفعية سواء كانت دنيوية أو أخروية يبدو بدون شك أسمى وأشد جاذبية من تلك الأفعال المدفوعة بالمصلحة»².

الخاتمة:

ختاماً يتبين لنا كيف كان "كانط" مجدداً في فلسفته العملية، فقد سعى إلى الثورة على كل الفلسفات الأخلاقية التقليدية الطبيعية منها والتي انتهجت طرائق العلم الطبيعي وفسرت القيمة الأخلاقية بإرجاعها إلى الاعتبارات الحسية الوجدانية، منطلقة في ذلك من تحليل طبيعة الإنسان والتحديدات الإمبيريقية له. والتأسيسات فوق الطبيعية للأخلاق وبالأخص تلك النظريات التي لجأت إلى المفهوم الأنطولوجي للكمال وإلى الكائن المطلق وراحت تؤسس القيم الأخلاقية عليها.

وينبغي أن نفهم أن نقد "كانط" لتلك النظريات الأخلاقية، لم يكن من أجل النقد فقط، وإنما لما لاحظناه من قصور في أقوالهم و خلط في آرائهم، فقد عجزوا عن تأسيس مبادئ صلبة، كلية ومطلقة تصلح لأن نقيم عليها القيم الأخلاقية، فالتفسير الأخلاقي القائم على الاعتبارات الحسية مثلاً، لا يقدم سوى قواعد نسبية متغيرة، كما أنه يضر بنقاء الأخلاق وصفائها، بينما القيم الأخلاقية ينبغي أن تتميز

¹ المرجع نفسه، ص 111.

² المرجع نفسه، ص 113.

بما هو كلي ومطلق. أما التفسير القائل بمفهوم الكمال الإلهي كأساس للقيم الأخلاقية، فهو لا يعدو عن كونه مجرد افتراض لا نملك حياله أي برهان مادي ملموس ولا حدس عقلي واضح، ثم إن القيم الأخلاقية التي يريدها "كانط" ليست في حاجة إلى كائن آخر يعلو على لإنسان، ولا في حاجة إلى باعث يخرج عن حدود القانون الأخلاقي.

من هنا نلاحظ كيف كانت الفلسفة الكانطية، فلسفة مقننة، حاولت أن تشرع للعقل البشري والحياة الإنسانية في كل صورها المعرفية والأخلاقية والجمالية، فحسبنا أن نلاحظ الأسماء التي أطلقها "كانط" على مؤلفاته والتي اشتملت كلها على كلمة "النقد" ("نقد العقل الخالص"، "نقد العقل العملي"، و"نقد ملكة الحكم") لنعلم من الوهلة الأولى أنه قد أراد بكتبه هذه نقدا وتحليلا في هذا المجال أو ذاك¹.

المصادر والمراجع:

1. إيمانويل كانط، أسس ميتافيزيقا الأخلاق، ترجمة: د/ محمد فتحي الشنطي، الطبعة الثانية، دار النهضة العربية، بيروت، 1969.
2. ———، مشروع للسلام الدائم، ترجمة: عثمان أمين، الطبعة الأولى، المكتبة لأجلو المصرية، القاهرة، 1952.
3. ———، نقد العقل العملي، ترجمة: أحمد الشيباني، دار اليقظة العربية، بيروت، 1966.
1. أحمد أمين، الأخلاق، الطبعة الثالثة، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1931.
2. إبراهيم زكريا، كانط أو الفلسفة النقدية، دون طبعة، دار مصر للطباعة، الكويت، د.ت.
3. بدوى عبد الرحمن، الموسوعة الفلسفية، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للدراسة والنشر، بيروت، 1984.

¹ أحمد عبد الحليم عطية، كانط وانطولوجيا العصر، المرجع نفسه، ص 148.

4. زكي نجيب محمود، قصة الفلسفة الحديثة، بدون ط، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1936.
5. علي عبد الله الصغير، مفهوم الأخلاق وخصائصها في النظرية الأخلاقية الكانطية، مجلة الطريق، العدد الأول، دار البنايين، دمشق، 1990.
6. توفيق الطويل، مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق، الطبعة الأولى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1953.
7. _____، الفلسفة الخلقية نشأتها وتطورها، الطبعة الأولى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1960.
8. جمال محمد أحمد سلمان، انطولوجيا الوجود إيمانويل كانط، بدون ط، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، 2009.
9. فائزة أنور شكري، القيم الأخلاقية بين الفلسفة والعلم، بدون طبعة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2005.
10. محمد عبد الحفيظ، دراسات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة، بدون ط، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر الإسكندرية، 2005.
11. فريال حسن خليفة، الدين والسلام عند كانط، الطبعة الأولى مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2001.
12. عادل العوا، الأخلاق، بدون طبعة، المطبعة الجديدة، دمشق، 1978.
13. فردريك كوبلستون، تاريخ الفلسفة، المجلد السادس الفلسفة الحديثة، ترجمة/حسين الشاروني، محمود سيد أحمد، الطبعة الأولى، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2010.
14. عادل ظاهر، نقد الفلسفة الغربية الأخلاق والعقل، الطبعة الأولى، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، 1990.
15. عبد الحق منصف، الأخلاق والسياسة كانط في مواجهة الحداثة، بين الشرعية الأخلاقية والشرعية السياسية، بدون ط، إفريقيا الشرق، المغرب، 2010.
16. محمد عثمان الخشت، الدين والميتافيزيقا في فلسفة هيوم، د.ط، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة.